مجلة أبحاث نفسية وتربوية ——— العدد 3- 2010، ص.ص.31-45

أي دور للأخصائي النفسي في المؤسسات العقابية ؟

د. وناس أمزيان
باحث بمخبر التطبيقات النفسية والتربوية- جامعة منتوري – قسنطينة.
أستاذ محاضر بقسم علم النفس، جامعة باتنة.

مقدمـة

تعود الفكرة الأولى لإقامة السجون إلى تلك الأجنحة التي أقيمت قرب مساكن المشعوذين واتخذت كمعتقلات للمنحرفين ومرضى العقل من أبناء العائلات الغنية، هذه العائلات التي كانت تظن أنه من العار أن ينتسب إليها مثل هؤلاء المنحرفين والمرضى لذلك أدخلتهم إلى معتقلات محروسة يشرف عليها المشعوذون، يمارسون فيها العلاج والتقويم بطرق الشعوذة ، و بعدها تبنى الحكام هذه الفكرة فحبسوا مرضى العقل إلى جانب المجرمين والأشرار باعتبار أن كلاهما يشكل خطرا على المجتمع، ومع تطور الفكر البشري فكر الأطباء في عزل مرضى العقل على المجرمين لعلاجهم وظلت الجريمة بدون علاج، إلى أن جاء عهد المسلمين فأعطوا للسجن ملامحه العصرية واحترموا إنسانية الإنسان وذلك حين استقر العرب في المدن وتحضروا، و قيل أن عمر بن الخطاب ابتاع دارا في مكة وحبس فيها بعض الأشخاص، و قد وضع عمر بن عبد العزيز نظاما للسجون حدده في الرسائل التي وجهها إلى ولاة الأمر نهى بموجبه عن إبقاء القيد في رجل السجين إلا إذا كان مطلوبا بدم، كما أمر للمسجونين بقدر من الدراهم لإعاشتهم، ونهى عن إعطائهم الطعام مباشرة خشية تسلط ولاة السجن عليهم، كما أمر بمسك سجلات تدون فيها أسماء المسجونين ويصار إلى إعطائهم معاشهم شهريا وباليد بعد المناداة، كما أمر بكسوتهم بثياب تلائم الشتاء والصيف (مصطفى العوجي 646). وبظهور الثورة الصناعية في أوربا تأثر الفكر البشري بمبادئها وأفكارها، فتحررت العقول من ظلمات الكنائس وجرى نتيجة لذلك تمرد في السجن الباستيل بباريس في 14 جويلية 1789 وبذلك بدأت المنظمات الإنسانية تظهر الواحدة تلو الأخرى مثل منظمات حقوق الإنسان ومنظمات ضد التعذيب والعنف ...الخ. وقد تأثر علماء النفس والاجتماع بتلك التيارات فأقيمت دراسات وندوات وبحوث في مختلف أنحاء العالم، و دائما كان رجال القانون يتأثرون بها يستجيبون لتلك النداءات الإنسانية مكيفين القانون مع ما يتلاءم مع إعادة التربية والتأهيل وإصلاح المساجين لإدماجهم مرة أخرى في الحياة الاجتماعية، فبدأت ظروف نزلاء

© مخبر التطبيقات النفسية والتربوية- جامعة منتوري، قسنطينة 2010

السجون تتحسن، إلا أن شكاويهم ازدادت وارتفعت أصواتهم منادين بمزيد من الإصلاحات وهي مستمرة لحد الآن. و في الجزائر وصل الاهتمام بهم إلى أوجه خاصة مع عزم الدولة الجزائرية ترقية المؤسسات العقابية وصيانة حقوق الإنسان الأساسية داخل السجن وتوفير كل ما هو لازم وضروري و يحتاج إليه الإنسان أينما كان وحيثما وجد لنزلاء المؤسسات العقابية .

تعريف السجن:

السجن عبارة عن دار للتوقيف يحتجز فيها المتهم حتى يقدم للمحاكمة (مصطفى العوجي 646). إذن، هو المكان المعد خصيصا لاستقبال أولئك الذين قرر المجتمع اعتقالهم وفاء لغرضين متمايزين من أغراض العدالة الجنائية، فقد يكون الاعتقال وسيلة للإمساك مؤقتا بالمتهمين بارتكاب جريمة في القانون وذلك ضمانا لعدم ضياع أدلة الجريمة أو لضمان عدم التلاعب فيها أو التأثير في شخص حاملها أو لضمان عدم هروب المتهم أو خلق متاعب للأمن، والاعتقال في هذا المعنى ليس في جوهره سوى مسألة رقابة وهو ما اصطلح على تسميته بالحبس الاحتياطي .

لكن قد يكون الاعتقال في حد ذاته تنفيذا لحكم قضائي صادر بسلب حرية المحكوم عليه أو تقييدا مؤبدا أو لمدة محدودة، ويكون جوهر الاعتقال هنا تنفيذ العقوبة و ليس مجرد مراقبة المتهم (عبد الفتاح الصيفي 17).

من هو النزيل ؟

لا أريد هنا أن أركز كثيرا على إنسانية المسجون بأنه ابن هذه الأسرة وهذا المجتمع، تعلم في تلك المدرسة، بل يجب أن نعلم أن السجين شخص سلبت منه حريته بقرار من العدالة اعتمادا على القانون الساري المفعول وذلك كعقوبة جزاء لتعديه على حدود، وحريات ومحرمات الآخرين، ورغم ذلك فإنه يفتخر بماضيه مهما كان، لأنه جزء من حياته، ويعيش حاضره بكل مرارة ويتطلع إلى مستقبل عليه تتوقف حياته الباقية، لديه مشاعر وأحاسيس، يتألم، يفرح، يحزن ويترقب المواعيد السارة، لديه شخصيته التي تميزه عن الآخرين ، لديه مجاله النفسي وحيزه المكاني مهما كان ضيقا، وحيزه الزماني مهما كان مجهول النهاية لأن البداية معلومة لديه، يتمتع بعلاقات خاصة حتى وإن كانت قد فرضت عليه. إنه الآن مرفوض اجتماعيا لذلك نجده يعذب نفسه ليس لأنه أحس بخطئه فقط بل لإحساسه بالرفض الاجتماعي الذي قد يدعمه في بعض الأحيان الرفض الأسري وقد يتعداه إلى الرفض من طرف المساجين أنفسهم، فهؤلاء المرفوضون اجتماعيا من المخالفين للقانون يجتمعون بحكم القانون في السجون و يشكلون مجتمعا موازيا للمجتمع الأصلي، تستمر حياتهم بطريقة معينة، يستقبلون خلالها الأيام والأشهر و ربما السنين ينتظرون انقضاء مدة العقوبة للعودة إلى أسرهم و ذويهم .

3 ـ تصنيف المساجين:

في هذا المجال توجد تصنيفات تقليدية مثل مجرم مبتدئ ومجرم معتاد أو مجرم محكوم عليه بالإعدام وآخر بالأبدي وآخر بمدة قابلة للتقلص، هذه التصنيفات تعتبر ظاهرية فقط، لأن وراء الابتداء أو الاعتياد تكمن أسباب عديدة لذلك وجدت التصنيفات الحديثة مثل: مجرم سوي ومجرم مريض. فالسوي هو الذي لا يعاني من أي مرض عقلي أو نفسي دفعه إلى ارتكاب جريمته، غير أنه إنسان لا يحترم القوانين الاجتماعية والدينية والعرف الأسرى، كما أنه لا يشغل جيدا الملكات التي وهبه الله إياها مثل ملكة الذكاء والذاكرة والتخيل والتفكير الجيد ....ولم يتحكم في دوافعه الشريرة وترك المجال تتحكم فيه قوى الشر واللاشعور الكامنة به مثل الغضب، سلك مسلكا لو عرض عليه وهو في حالة وعيه لاستنكره وطلب تسليط العقوبة على صاحبه.

أما الصنف الثاني، فهو مجرم مريض، وهنا جدير بنا أن نرفع شعار عدونا الجريمة وليس المجرم، فالمجرم المريض في حاجة إلى علاج أولا، و بهذا النوع من الجريمة اهتم العلم الذي عادة لا يدرس الجريمة الناتجة عن جهل القانون أو إهماله، غير أن القانون يعاقب على هذا الفعل. فالعلم بمختلف فروعه انصب على دراسة دوافع الجريمة من خلال دراسة السلوك البشري ومحاولة فهمه للوصول إلى الأسباب التي تجعل الدوافع تتخطى الموانع والحواجز القانونية والدينية الرادعة، فيقع الإنسان في جريمة رغم أنفه. فقد تبين من خلال الدراسات النفسية أن هؤلاء المجرمين يعانون من اضطرابات في الشخصية ومن شذوذ سيكولوجي يولد لديهم الأمراض النفسية، إذ يوقظ فيهم المكونات والشحنات اللاشعورية ويدفعهم إلى ارتكاب الجرم، إلى جانب هذا التصنيف هناك تصنيفات أخرى نذكر منها المجرمون العصابيون والذهانيون، لكن المؤكد أنه لا يمكن العثور على طراز واحد ثابت لا يتغير، لكن هذه التقسيمات ضرورية حتى وإن كانت جد نسبية لأخذها بعين الاعتبار خلال التعامل اليومي مع الذين يودعون السجن قصد إعادة تربيتهم، وهذا بقصد إحداث تغير في تفكيرهم وشخصيتهم .

غزو الأخصائيين النفسانيين للمؤسسات العقابية الجزائرية :

في الجزائر كان يقتصر تواجد الأخصائيين النفسانيين في أكبر المستشفيات، وكانوا قليلي العدد، لكن تزايد عددهم في الثمانينيات وتكاثر في التسعينيات. وقد كان اللقاء الأول بينهم وبين العدالة بواسطة طب النفس الشرعي، تلته بعض الزيارات القليلة للنفسانيين العاملين في المستشفيات إلى السجون القريبة من مقر عملهم بدعوة من وزارة العدل التي فتحت أبوابها فيما بعد لتوظيفهم.

الأخصائي النفساني هذا الحاضر الغائب منذ زمن في هذه الوزارة، إذ نجده مذكورا في برامج إعادة التربية وقوانين السجون الصادرة سنة 1972 لكنه غائب عن الممارسة فيها. وتوظيف الأخصائيين النفسانيين في الثمانينيات جاء بعد إحساس المسؤولين بالدور الذي يمكن أن يلعبه النفسانيون في إعادة التربية وإعادة الإدماج.

ويمكن أن أذكر رقما جزافيا تقريبيا حول عدد الممارسين النفسانيين في السجون الجزائرية بأنه وصل إلى أكثر من 100 نفساني موزعين على أكبر المؤسسات العقابية، والمتمثلة في مؤسسات إعادة التأهيل والتربية الواقعة في غالب الأحيان في مقرات الولايات والتي عددها يتجاوز 50 مؤسسة .

النصوص التنظيمية لعمل الأخصائي النفساني في المؤسسات العقابية:

يشتغل الأخصائيون النفسانيون بالمؤسسات العقابية بصفتهم موظفين مدنيين وسط موظفين شبه عسكريين أو على الأقل ينتمون إلى أحد أسلاك الأمن، وذلك بموجب نصين قانونيين، أحدهما خاص بقطاع السجون وهو الجهة المستخدمة والآخر خاص بقطاع الصحة وهو السلك الأصلي للنفسانيين، وفيما يلي بعض التفصيلات للقانونين :

1 - قانون تنظيم السجون وإعادة التربية، ولاسيما المواد رقم 76 وما يليها منه والتي تنص على وضع النفساني تحت سلطة مدير المؤسسة، كما يكلف بمتابعة مجموعة من النزلاء من الناحية النفسية، ويعني بالتعرف على شخصية كل واحد منهم ويسعى إلى التأثير فيهم إيجابيا وله ملف شخصي لكل نزيل قدم له العلاج النفسي ويساعدهم على حل مشاكلهم الشخصية والعائلية، كما يشرف على التعليم والتكوين المهني كل الأنشطة الثقافية والرياضية، وكذلك تكييف جميع التدابير الرامية إلى إعادة تأديب المحكوم عليهم، وهو ملزم بحضور اجتماعات لجنة الترتيب والتأديب وتقديم التفسيرات اللازمة بشأن أي نزيل يمكن أن يستفسر حوله، يمكن له أن يقدم اقتراحات بالإفراج المشروط أو الالتحاق بورشة خارجية أو الاستفادة من عطلة لصالح أي نزيل يرى بأن ذلك من مصلحته .

2 - المرسوم التنفيذي رقم 111/91 المؤرخ في 27 أفريل 1991 المتضمن القانون الأساسي النموذجي لأخصائيين النفسانيين الممارسين في قطاع الصحة العمومية و لاسيما المواد رقم 18 و 19 والتي تحدد مهام وصلاحيات الأخصائي النفساني العيادي فيما يلي :

الفحوص النفسية – التقييم النفسي – التشخيص النفسي– التوجيه – المساعدة النفسية سيما الإرشاد، والنصائح المرافقة النفسية للمريض الذي هو في حالة خطيرة، تحضير المرضى نفسيا للعمليات الجراحية – الوقاية والعلاج الشافي– وكذلك تطبيق التقنيات العلاجية المتخصصة – العمل المؤسساتي – تكوين الموظفين الطبيين والشبه الطبيين – تطبيق العلاجات النفسية سيما :العلاج النفسي بالدعم – العلاج السلوكي، الاسترخاء، العلاج الجماعي، ديناميكية الجماعة والسيكودراما .

علم النفس والعدالة في مواجهة الإجرام:

لكي يتغير وجه المؤسسات العقابية وتتغير نظرة المجتمع إليها ويتبدل مفهومها القديم إلى مفهوم حديث يتسم بالفعالية ويكتسي الطابع الإنساني ويصون حقوق الأفراد المودعين بها ويتجسد فعلا شعار إعادة التربية والتأهيل الذي يحتوي على برنامج

متنوع يخص فتح مدارس للتعليم العام و ورشات للتكوين المهني ومجالات لممارسة الرياضة والترفيه والتعبير عن الرغبات والمشاعر والنمو السليم من الناحية الجسمية والنفسية، والسعي إلى علاج المجرم ومحاربة الجريمة بشتى أشكالها، وإصلاح الفرد الجانح والمجرم لكي يكون فردا صالحا يعاد إدماجه من جديد في وسطه الطبيعي ألا وهو الأسرة والمجتمع. ولكي يكتب لها النجاح في هذه المهام كان لا بد لها من موظفين مؤهلين من الناحية العلمية والمعرفية والمعنوية لتعزيز ذلك المسعى بانتهاج المنهج العلمي في التعامل مع مشاكل الإنسان في أعقد مراحل حياته وأخطر ظروفه وأصعب أزماته، وبما أن للجريمة علاقة وطيدة بالجهاز النفسي للإنسان، ومن أجل علاجها كاضطراب في السلوك أو مرض نفسي يصيب الشخصية كان لا مناص من التعاون مع النفسانيين للمساهمة في المحافظة على التوازن النفسي والشخصي للنزلاء سواء داخل السجن أو بعد الإفراج عنهم نظرا لما للنفساني من وزن من الناحية المعنوية والإنسانية، فهو أقرب الموظفين بدون جدال من النزلاء كون مهمته ذات صبغة إنسانية، وذلك يفتح إمكانية التأثير في بعضهم وتحفيزهم على التغير نحو الأحسن واقتراح تدابير خاصة للبعض الآخر أو من خلال المساهمة في إثراء برامج إعادة التربية والتأهيل وتنويعها بإعداد البرامج التربوية والتعليمية المناسبة لهذه الفئة حسب مختلف الأعمار والمستويات الدراسية. إضافة أن للنفساني إمكانية فهم النزيل من ناحية اضطراباته وانفعالاته وتفسيرها وإيجاد الحلول الناجعة لها، فإن بإمكانه توجيه طاقم المؤسسة العقابية وإرشاده إلى أفضل السبل لتربية الذين زلت بهم القدم في طريق الانحراف، ويكون القدوة كذلك في التعامل مع هذه الفئة من المجتمع حتى في حالة العدوانية. وهي عموما تحدث في شكل تحويل للحب أحيانا و الكراهية أحيانا أخرى، كل تلك المشاعر يسقطها النزيل على شخص النفساني وحده لأنه الجدير بتقديرها وفهمها. إن التعاون الجدير بالاحترام مع النفساني يسهل للقائمين على المؤسسات العقابية الحفاظ على إنسانية الفرد والسهر على ترقيته وتطويره وإكسابه خبرات جديدة وإدخال عناصر هامة في شخصيته وتغيير تفكيره وتهيئته لإدخاله من جديد في المجتمع فردا جديدا صالحا يبني مستقبله بكل أمان .

دور الأخصائي النفساني في المؤسسات العقابية :

إن العلاقة بين النفساني و بين زواره من المساجين تعتبر مهمة للغاية وعليها يتوقف دوره بصفة عامة، فالعلاقة السليمة هي بداية الشفاء وتمثل نصف الدواء، لذلك يجب أن تتسم بالثقة بين الطرفين ويسودها جو من التفاهم والارتياح من جانب النزلاء الذين يستندون على النفساني في كثير من المواقف والحالات التي تتطلب تدخله، حيث يشعرون بالأمان وبالسند الذي يفتقدون إليه من باقي موظفي المؤسسة العقابية، وأكثر من ذلك فإنه يعتبر صندوق الأسرار إذ يبوح له النزلاء بأسرارهم وأمانيهم وأحلامهم وآلامهم ... لذلك فهم يستمعون إليه جيدا و يتقبلون ما يقوله ويحاولون تصحيح أفكارهم وتعديل سلوكهم. ولكي لا يقع النفساني في مغالطاتهم وحيلهم يجب عليه أن يكون حذرا من الانجذاب والتورط العاطفي الذي يسعى إليه بعض المساجين

لكسب وده والفوز بمعونته وتدخلاته لدى مسؤولي السجن، فهو لا يمكن أن يكون طرفا مساندا للمساجين ولا يشاركهم عواطفهم وأحاسيسهم، بل هو موظفا محايدا وموجها، غير أن هذه العلاقة يجب أن تشمل كل العاملين في حقل العلاج وإعادة التربية، لأن النفساني يعتبر شخص محوري مهم في التنسيق بين مختلف الأطراف والتأثير فيها. ومهما يكن من أمر فإن نشاطه النفساني ينقسم إلى جهدين الأول موجه إلى النزلاء والثاني إلى المشرفين على إعادة تربيتهم لأجل تكامل المجهودات والوصول إلى نتائج مرضية، وهو مرجع لكثير من الموظفين في العديد من القضايا التي تهم النزلاء وإعادة تربيتهم. وفي خضم ذلك الجو فإنه يقوم بعدة أنشطة مختلفة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد وهو إصلاح النزيل وإعادة إدماجه من جديد في المجتمع فردا سليما من الناحية النفسية، ومن الأنشطة المتاحة التي يقوم بها عموما النفساني بالمؤسسة العقابية نذكر ما يلي :

1- الفحص النفساني:

وهو عادة لقاء على انفراد بين النفساني والنزيل وجها لوجه في مقابلة قد تمتد أحيانا إلى أكثر من ساعة من الزمن بمكتب الأخصائي النفساني الذي عادة لا يكون مجهزا بالوسائل الضرورية للفحص النفساني، بل على النفساني الإلحاح على تلك الوسائل لأن القائمين على السجن ليسوا أصحاب اختصاص وهو يتواجد بعيادة المؤسسة، الفحص يكون إما بطلب من النزيل أو بتوجيه من أطراف أخرى مثل الأطباء الذين سبق لهم فحصه أو من طرف مدير المؤسسة أو قاضي تطبيق العقوبات. يتم استعراض النزيل لحالته بنفسه بمساعدة النفساني، وأهم المقابلات التي تصلح مع النزلاء هي : مقابلة التعارف، مقابلة المساعدة مقابلة العلاج والمتابعة مقابلة ما قبل الإفراج. والنفساني ملزم قبل كل شيء بطمأنة النزيل بأن كل ما يدلي به لن يتم إبلاغه لأي كان وأن المحافظة على أسراره شيء مقدس بالنسبة للنفساني.

يقوم أولا بالتشخيص النفسي أي التعرف على نوعية المرض أو الاضطراب الذي يعاني منه العميل، ويستخدم لأجل ذلك عدة وسائل منها: الاختبارات النفسية. ويركز كل اهتمامه حول العميل، مشاعره، أحاسيسه، التغيرات التي تطرأ على حركاته، الكلمات التي يختارها، طريقة ظهوره ... أي دراسة شخصيته دراسة شاملة.

الأمراض النفسية في الوسط العقابي :

يعتبر السجن تجمع غير عفوي لفئة معينة من المجتمع لديها خصوصياتها ومميزاتها، إذن فمن طبيعي أن تظهر عليها بعض أنواع الأمراض الخاصة بها ومعظمها من فعل سمة الانغلاق التي تميز هذا النوع من المؤسسات. و يمكن الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال وليس الحصر منها: عصاب السجن الذي يسبب في اضطراب الطبع والتفكير لدى النزيل الذي لا يستطيع التحكم في عواطفه ورغباته فيسلك سلوكا منحرفا يسبب له الانزواء، ثم نجد الاكتئاب، ومحاولة الانتحار الذي يظهر على شكل كره للحياة والتبرم منها والهروب من المشاركة، وكذلك الانحرافات

الجنسية التي تتمثل في الاستمناء والجنسية المثلية ولا غرابة في وجودها بين نزلاء المؤسسات العقابية نظرا لطبيعة المجتمع العقابي، وكذلك بعض الحالات من الاستعراضية، كما نجد العدوانية الذاتية، حيث يستعمل المسجون جسمه كوسيلة لدفع القلق الذي يصيبه، فنجده يوجه لنفسه ضربات بأي شيء يجده في متناول يده قصد إلحاق الضرر بجسمه. كما تبرز اضطرابات النوم باختلاف أنواعها، وأكثرها شيوعا هو الأرق. ولابد من الإشارة إلى أن معظم النزلاء قد تناولوا سابقا المخدرات و الكحول وأصبحوا مدمنين لذلك يسعى كل منهم بشتى الطرق إلى الحصول على كمية من المخدرات الصيدلانية المسببة للسعادة والهلوسة ومن أفضل الأقراص بالنسبة للنزلاء نجد لرطان الذي يسيل لعاب المدنين لارقاقتيل، ترانكسان، نوزينون الهالدول السوال وغيرها. كما يجب الإشارة إلى الوشم حيث يقوم بعض المساجين برسم أشكال معينة معبرة على أوضاعهم وأحوالهم وتحكي قصص حياتهم وتترجم مشاعرهم وأحاسيسهم، يخاطبون بها غيرهم ويلجئون إليها عندما يعجزون عن التعبير الشفوي من ناحية، ومن ناحية أخرى فهم يقلدون بعضهم ويتباهون باخضرار أجسادهم ويفتخرون بعدد المحاكمات والسنوات التي قضوها في السجن.

2 - العلاج النفسي:

والذي يعتبر أهم أعمال الأخصائي النفساني على الإطلاق ولأجل تحقيق ذلك يستعمل عدة تقنيات علاجية علما أن التعامل مع شخص مسلوب الحرية من الناحية النفسية ليس بالأمر الهين كما يظن البعض. ففي بعض الأحيان كل الطرق لا تكاد تنفع مع عميل يعاني من عدة اضطرابات في نفس الوقت، لذلك على النفساني أن يكون على غاية من الفطنة والانتباه والمهارة لكي يتمكن من إقناعه بطريقة علاجية معينة خاصة. إن معظم النزلاء يعتبرون النفساني طبيبا للأمراض العقلية ويقدمون له طلبات لمنحهم الأدوية، وعليه أن يجتهد في إقناعهم بأنه طبيب الأمراض النفسية وليس العقلية وذلك عن طريق الحوار والمناقشة الجماعية في القاعات عندما يقوم بجولات تفقدية إلى حيث النزلاء أو حتى من خلال تعليق لافتة تشير إلى كونه طبيب لا يمنح الأدوية بل مهمته تكمن في العلاج النفسي. علما أن أفضل علاج هو عندما يذهب النفساني إلى حيث النزيل و يكتشف بأنه مريض و بحاجة إلى علاج ومساعدة، لأن الكثير من النزلاء يخجل أو يخشى من الذهاب إلى مكتب الأخصائي النفساني لما ارتبط به هذا الاسم من نعوت. و من بين العلاجات التي يقدمها السيكولوجي للنزلاء ما يلي :

◄ **العلاج النفسي بواسطة التفريغ :** تعطى الفرصة للنزيل بأن يتكلم ويفرغ كل ما في صدره من مشاعر مؤلمة أو مفرحة قديمة كانت أم حديثة يعبر عن كل ما يجول في خلده من أفكار وشكاوى وانتقادات وإرهاصات الماضي وتطلعات المستقبل بالطريقة التي تساعد على تفريغ شحنة القلق والانعصاب التي يعيشها، فيبكي أحيانا ويضحك أحيانا أخرى. عموما يشعر براحة تامة لأنه وجد من اهتم به واستمع إليه. وفي بعض الأحيان يتم التفريغ عن طريق كتابة صفحات كاملة موجهة للنفساني قصد الإطلاع

عليها، وهذه التقنية تفيد مع الحالات التي تعاني من القلق والاكتئاب والأزمات العاطفية، وتلك التي سبق لها القيام بمحاولات الانتحار.

◄ **الدعم النفسي :** هنا يحاول النفساني أن يكسب ثقة النزيل ويجعله يبوح بكل أسراره و يتحدث عن آلامه وأماله، وبذلك يمكن التعرف على نقاط ضعفه وقوته واستغلالها في العلاج والتوجيه. عموما يشعر النزيل بالدعم النفسي من خلال الاستماع إليه وإعطائه الاعتبار اللازم من خلال التشجيع أحيانا والتوجيه أحيانا أخرى.

◄ **الاسترخاء النفسي والعضلي :** وهو أن يتمدد النزيل فوق أريكة الاسترخاء، وهي موجودة في عدة سجون و/ أو فوق سرير عادى، ويبدأ الاسترخاء الفكري وذلك بالتخلي عن الأفكار المزعجة والمقلقة، حيث يحاول النفساني إدخال الأفكار السارة، ويتم الاستعانة بالصور الجميلة والموسيقى المريحة ثم ينتقل إلى الاسترخاء العضلي لكي يزيل التصلب من جسمه وخاصة الأطراف العليا والسفلي والوجه. هذه التقنية العلاجية تفيد المرضى الذين يعانون من توترعصبي نفسي وجسمي وتكون فعالة في علاج عصاب السجن والتخشب والتشنج وإخراج الأفكار القسرية وإعادة الثقة إلى النفس، وهي تعرف إقبالا واستحسانا من طرف النزلاء وحتى الموظفين .

◄ **الإرشاد النفسي:** يقوم النفساني بتوجيه وإرشاد النزيل إلى السبيل القويم باستعمال أحسن الصيغ، وهي عموما تتمثل في جملة من النصائح التي يقدمها الأخصائي النفساني للعميل عندما يرى بأن حالته يستدعي علاجها مجرد إتباع النصائح، وهي عبارة عن تقنية فردية يقوم بها العميل للتخلص من مشاكله وقصوره أو اضطرابه، وهي تفيد كثيرا المرضى بالخجل والمنعزلين عن الوسط العقابي أو ما يسمى كذلك بغرباء السجن والذين يعانون من اضطرابات بسيطة في السلوك .

◄ **العلاج باستعمال الدين :** يقوم النفساني بشرح العلاقة بين الوقوع في مرض أو انحراف معين والبعد عن الدين والربط بينهما في العلاج عن طريق الترهيب من عواقب الانحراف عن الطريق المستقيم والترغيب في الدين والراحةو/أوالشفاء الذي ينجر عنه، و كل حسب حالته واستعداده النفسي والفكري لتقبل العلاج الذي تشرح منهجيته، فإذا اقتنع بها المريض سوف تكون نتائجها هامة جدا، النزلاء. ويتم أحيانا توجيه النزيل لحضور الخطب والدروس الدينية التي يلقيها إمام منتدب من طرف مديرية الشؤون الدينية لدى مؤسسة السجن.

◄ العلاج بواسطة التحفيز والتنفير: بعد التعرف على الجوانب السلبية والإيجابية في شخصية العميل يقوم النفساني بعد ذلك بتبصيره بها والتعرف عليها ثم يتم تحفيزه على إتباع الجانب الإيجابي وينفره لتفادي الجانب السلبي. ونتيجة العملية هي أن العميل في النهاية يصحح سلوكه الخاطئ الذي أدى به إلى التوتر والاضطراب بسلوكات صحيحة تعلمها بتوجيه من النفساني، كل ذلك يتم باستعمال الحوار والمناقشة، وهي عبارة عن تقنيات تنفع في حالات اضطراب النوم، القلق، الخجل، التوتر، الإدمان على المخدرات ، الانحراف الجنسي والاعتداء على الذات .

◄ **العلاج بالعمل :** كمون الطاقات التي تتوفر لدى بعض النزلاء تسبب لهم قلقا جسميا يدفعهم في بعض الأحيان إلى البحث عن أسباب المشاجرات مع الآخرين أو الاعتداء على أجسادهم، لذلك قد يوجه النفساني بعضهم لأداء بعض الأعمال المفيدة لهم وللمؤسسة سواء بصفة فردية أو جماعية استغلالا لطاقاتهم ووقتهم، وذلك كعلاج نفسي يفيد ضد العدوانية وعصاب السجن والقلق والتقليل من استهلاكهم للمخدرات.

◄ **العلاج النفسي المركز :** يقوم النفساني هنا بمواجهة العميل مع نفسه بمقابلته لمرآة كبيرة تظهره كاملا حيث يجلس فوق كرسي مريح و يرى نفسه بصورة كاملة وجيدة ويقوم بمخاطبة نفسه وانتقاد سلوكه، حيث يكون هو السائل والمجيب عن نفسه وبتشجيع من النفساني يتمكن من اكتشاف نفسه ويعرف حقيقتها من خلال مواجهتها بنفسه، ويقيم اضطراباته السلوكية. وبالتالي فإنه يكتشف عيوبه بنفسه. هذه التقنية تفيد النزلاء الذين يعانون من نقص الثقة في النفس أو وساوس مصدرها الآخرين وكذلك مشاعر الذنب وتأنيب الضمير.

◄ **العلاج بالتحليل النفسي:** تحتاج بعض الأمراض النفسية التي تصيب النزلاء إلى استعمال أسلوب التحليل النفسي من أجل استجلاء أسباب الصراع من العلاقة التي تسود الجهاز النفسي، ولكي نتعرف على الصراع القائم بين مختلف القوى النفسية نلجأ إلى تفسير الأحلام وزلات اللسان وإلى الهيئة التي يظهر بها النزيل وطريقة حديثه لكشف العقد النفسية ومحاولة حلها خلال جلسات عديدة من العلاج العميق.

◄ **العلاج الجماعي:** قلما نجد نزيلا يقبل على العلاج النفسي الجماعي، لأنه يعتبر ذلك إذاعا لأسراره وأخباره وإشراك الآخرين في خصوصياته، فالعلاقة بين المساجين على العموم تتسم بالحذر وتشويه الحقائق في مقابل تبادل المصالح والعلاقات النفعية التي تفرضها عليهم الحياة داخل السجن، لذلك فإن العلاج الجماعي قلما يستعمل، وإن وجد فهو قليل الفعالية ونتائجه تكون غير واضحة ولا يمكن متابعة النزلاء بشكل جيد، ومادام المساجين لا يقبلون عليه فإن النفساني كذلك لا يستعمله .

3 - الإحالة إلى أطباء آخرين :

بعد الفحص النفسي قد تبدو حالة المريض بأنها تستدعي فحصا طبيا عند أحد الاختصاصيين فيتم توجيه المريض حسب حالته، و هي عموما تتم نحو الأطباء العامين العاملين بالمؤسسة أو طبيب الأمراض العقلية الذي يزور المؤسسة العقابية من حين لآخر، وهنا يمكن الإشارة إلى الاحترام الذي يحظى به النفساني لدى الأطباء ومدى تقدير رأيه من طرفهم .

4 - تحضير بعض المساجين للخروج إلى الحياة العامة:

وهذا لا يخص المفرج عنهم بمناسبة منح العفو الجماعي بل يخص النزلاء الذين يكون تاريخ الإفراج عنهم معلوم بعد أن قضوا فترة العقوبة، حيث يعطي لهم النفساني صورة عن التصرفات الواجب التقيد بها تجاه المجتمع وتزويدهم بمجموعة من النصائح يتسلحون بها بعد الخروج من السجن، و يحاول تغيير فكرة شخصية المجرم التي يحملونها عن أنفسهم والتي نمت لديهم في السجن، وذلك من أجل أن يعودوا إلى أهاليهم وهم مزودون على الأقل ببعض النصائح التي تزيدهم ثقة في النفس وتؤهلهم بالتالي للتكيف النفسي الاجتماعي بدون مشاكل ولا عقدة نقص تجاه الآخرين، وخاصة الذين يقطنون القرى أو يكونون معروفين في أوساط المجتمع بأنهم مساجين سابقين .

5 – القيام بزيارات إلى عنابر وقاعات النزلاء:

يقوم النفساني بزيارات إلى مختلف أجنحة السجن، وهذا للتعرف على حياة المساجين ومعاناتهم اليومية والوقوف على مشاكلهم الشخصية والاجتماعية وحتى العائلية من خلال محاورتهم جماعات و فرادى ومشاركتهم بعض الألعاب والجلوس معهم في الفناء ومشاهدتهم في أوقات تناول الوجبات الغذائية، وغير ذلك من مظاهر الحياة الجماعية. كما تتاح له فرصة التعرف على مشاكل النزلاء فيما بينهم فيحاول خلق جو من التآخي والتفاهم من أجل تقاسم حلو الحياة ومرها، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية كان ضروريا أن تتعدد الزيارات بمعدل زيارة كل أسبوع، وهناك يتم اكتشاف الحالات المرضية والاجتماعية العسيرة التي تتطلب تدخل النفساني أو حتى تدخل المساعدة الاجتماعية أو أطباء المؤسسة، فيتم استدعاء النزلاء المعنيين بذلك إلى مكتب النفساني ومن ثم تتم مساعدتهم كل حسب حالته. كما يحاول علاج بعض المشاكل وإيجاد الحلول المقبولة لها سواء في مكان تواجد النزيل أو في المكتب عند استقبال النزيل، وبهذا يتبنى النفساني فكرة " أن أفضل علاج هو عندما يذهب الطبيب إلى حيث المريض ويكتشفه " لأن كثير من النزلاء يخجل أو يخشى من الذهاب إلى النفساني لما ارتبط به هذا الاسم من نعوت كاعتباره طبيب المصابين بالأمراض العقلية.

6 - زيارة قاعات الدراسة:

يقوم النفساني بزيارات إلى قاعات الدراسة وورشات التكوين المهني قصد الوقوف على بعض مشاكل المتمدرسين من خلال التحاور معهم ومع معلميهم وتزويدهم بنصائح قابلة للتطبيق تخص كيفية مراجعة الدروس واستذكارها والاستفادة منها والتحضير للامتحانات والدخول إليها بدون خوف من الرسوب ويساعد الذين لديهم نقائص في تحصيل أو إضراب القابلية للدراسة فيحثهم على المواضبة وعدم الانقطاع عن الدروس .

7 - حضور اجتماعات لجنة الترتيب والتأديب كعضو فعال :

بناء على القرار المؤرخ في 10 فيفري 1972 الذي يحدد تشكيل اختصاصات لجان الترتيب والتأديب بالمؤسسات العقابية، فإضافة إلى قاضي تطبيق العقوبات ومدير المؤسسة، يكون عضوا في هذه اللجنة الأطباء والأخصائيون النفسانيون ورؤساء الحراس، وكذا المساعدة الاجتماعية. هذه اللجنة التي تجتمع مرة كل شهر باستدعاء من رئيسها حيث يلعب فيها الأخصائي النفساني دورا فعالا في تنشيط وتفعيل دور هذه اللجنة وذلك لكون جل نشاطاتها ذات علاقة مباشرة مع اختصاصه، وذلك من خلال ترتيب المساجين عند وصولهم إلى المؤسسة العقابية في نظام حبس يتوافق مع مدة العقوبة المحكوم بها عليهم وحسب ظروف كل مؤسسة. كما يقوم بدراسة ملفات التقرب العائلي التي يتقدم بها المساجين إلى اللجنة وطلبات الإفراج المشروط والاستفادة من نظام الوسط المفتوح والحرية النصفية والالتحاق بالورشات الخارجية وحول إرجاع المحكوم عليهم من نظام إلى آخر، كأن يعاد النزيل من نظام الحرية النصفية إلى نظام الحبس المغلق، لذلك يقوم بدراسة هذه الملفات ومقابلة أصحابها وتشخيص حالتهم النفسية والوقوف على احتياجاتهم الآنية وقدراتهم التأهيلية، ويقدم بشأن ذلك رأيا منفردا يخص كل حالة على حدا يرفقه بملف المعني الذي يمكن لكل أعضاء اللجنة الإطلاع على رأيه كتابيا والذي يدعمه خلال المناقشات العامة التي تدور أثناء انعقاد اللجنة .

كما يساهم النفساني بفعالية في دراسة وإبداء رأيه في برامج التكوين المهني والنشاطات التعليمية والثقافية والرياضية وكل النشاطات المرتبطة بالقطاعات الأخرى، وفي الأخير يكون ملزما بالإمضاء على محاضر الاجتماع التي ترسل إلى المديرية العامة لإدارة السجون وإعادة التربية.

8 - التنسيق:

يقوم النفساني بالتنسيق في عمله مع أطباء المؤسسة والمساعدة الاجتماعية إن وجدت و طبيب الأمراض العقلية الذي يزور المؤسسة من حين لآخر، وذلك من اجل ضمان متابعة جيدة للنزلاء وتنسيق وتقاسم الجهود وتبادل الآراء من أجل فعالية العمل الجماعي، وأحيانا تعقد اجتماعات بشأن بعض الحالات التي تتطلب ذلك.

9 - مرافقة النزلاء:

هذا يخص بعض النزلاء الذين تتطلب حالتهم الصحية مرافقة النفساني لهم إلى المستشفى أو زيارتهم باستمرار، وكثيرا ما يطلب الأطباء القائمين بعلاج بعض النزلاء بالمستشفيات الجامعية زيارة النفساني للمريض أو تحرير تقرير حول حالته النفسية، وخاصة إذا تعلق الأمر بمرضى مقبلين على إجراء عملية جراحية.

10 - ملاحظة محادثة النزلاء مع أهاليهم :

مشاهدة المساجين خلال التحدث مع أهاليهم ومحاولة التعرف على طرق التعبير لديهم وسلوكهم أمام أوليائهم، وتقديم بعض النصح لأهاليهم والتي تخدم النزيل أثناء تأدية عقوبته ويتم ذلك في مقابلة بين النفساني وأهل النزيل حيث يتعاون الطرفان على تعديل سلوكه نحو الأحسن.

11 - التحاور مع المسؤولين:

كما يقوم النفساني بالتحدث إلى المسؤولين عن المؤسسة ومناقشتهم حول بعض الحالات التي تستدعي ذلك، ويكون التنسيق على الخصوص مع ضابط الحيازة، مدير المؤسسة، قاضي تطبيق العقوبات، ورؤساء الأجنحة. وللإشارة فإن التعاون الجدير بالاحترام مع النفساني يسهل للقائمين على المؤسسات العقابية الحفاظ على إنسانية الإنسان و السهر على ترقيته وتطويره وإكسابه خبرات جديدة وإدخال عناصر هامة في شخصيته وتغيير تفكيره وتهيئته لإدخاله من جديد في المجتمع فردا جديدا صالحا، يبني مستقبله بكل أمان، ويساهم كذلك في الحفاظ على أمن المؤسسة من خلال استقرار الحالة النفسية للنزيل وتوازنه وانشغاله طول الوقت .

12 - الأنشطة العلمية :

كما يقوم الأخصائي النفساني بإعداد محاضرات و إجراء لدراسات بحوث نفسية، حيث يلقي بعضها في ندوات وطنية تنظم على الخصوص لهذا الغرض أو يرسلها للهيئات المكلفة بالبحث في المديرية العامة لإدارة السجون وإعادة التربية، وهكذا يستفيد منها كل من لهم علاقة بالسجن والمساجين، وأحيانا يكلف النفساني بإجراء الخبرة النفسية لبعض المتهمين بجرائم القتل العمدي وتؤخذ تقاريره بعين الاعتبار. ولوحظ بأن بعض القضاة يفضلون في هذا المجال التعامل مع الأخصائي النفساني على التعامل مع طبيب الأمراض العقلية .

وعلى العموم يبقى مكتب الأخصائي النفساني مفتوحا للجميع سواء تعلق الأمر بالموظفين أو المساجين وكل الذين يشتكون من مشاكل نفسية أو سلوكية يتم فحصهم و الإشراف على علاجهم .

13 - عمل النفساني محاط بالقوانين والأخطار:

رغم تطور المؤسسة العقابية الجزائرية إلى مؤسسة إعادة التربية والتأهيل يعمل بها أخصائيون نفسانيون كموظفين دائمين، إلا أن الأخصائي النفساني يقوم بعمله وهو محاط بالقوانين وبمجموعة من الممنوعات والتهديدات مما يؤثر على مسار عمله ويقلصه من عمل إلى جزء من عمل فقط، فدوره العلاجي التوجيهي الإنساني يستلزم نوعا من الحرية والمبادرة، لكن طبيعة مثل هذه المؤسسات التي تحتوي على فئة خاصة من النزلاء تستلزم التكتم والحفاظ على السر المهني وعدم التعامل مع النزلاء أو

مع أهاليهم خارج الأطر القانونية خاصة وأن النفساني ينظر إليه في بعض الأحيان كعنصر دخيل على المؤسسة باعتبار أن كل موظفيها يرتدون البذلة الرسمية والنزلاء يرتدون البذلة العقابية ماعدا الأطباء والنفسانيين يرتدون لباسا مدنيا عاديا، لذلك فهم محل أنظار الجميع وكثيرا ما يشعرون بالمراقبة من طرف طاقم السجن أثناء تأدية مهامهم، هذا فضلا عن كبح غير مباشر لمبادرات النفساني التي تتعارض في بعض الأحيان مع القوانين السارية مثل الإلحاح على خروج بعض المساجين في عطلة نظرا لسلوكهم القويم أو الاستفادة من نظم مختلفة مثل الخروج إلى العمل بالورشات الخارجية، مثل هذه الاقتراحات لا تلقى في كثير من الأحيان الآذان الصاغية نظرا لعدم توافقها مع نظام المؤسسة العقابية. وكذلك الأخطار التي يتعرض لها الأخصائي النفساني خلال تأدية عمله سواء أخطار مرضية من جراء احتكاكه بالنزلاء الذين من المحتمل أن يكون البعض منهم مصابون بمختلف أنواع الأمراض، أو أخطار التعدي الجسدي من قبل النزلاء أو المشاركة في إستتبات الوضع داخل المؤسسة إذا حدث طارئ، فالتعامل مع الإنسان مهما كان مستواه الاجتماعي والثقافي يختلف عن التعامل مع الآلات والأشياء، فالعمل مع النزلاء محفوف بالأخطار والتعرض لشتى الأنواع من الضغوطات سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من طرف أي كان .

14 - سيكولوجية المساجين:

يشكل المساجين داخل المؤسسات العقابية وبالخصوص منها إعادة التأهيل والتربية مجتمعا موازيا للمجتمع الخارجي الذي يتمتع بصفة السوية. وعندما نتحدث عن المجتمع العقابي يجب الأخذ بعين الاعتبار أن هناك قوانين وضوابط يتعلمها المسجون الجديد تلقائيا أول ما يدخل السجن، ففي الجزائر أو في أي بلد آخر يكتسب النزيل مع مرور الأيام شخصية جديدة مخالفة لشخصيته الأصلية التي تكون قد ضاعت منه في متاهات الشوارع وعلى عتبات الانحراف رغم حفاظه على بعض سماته الشخصية، حيث يجد نفسه مجبرا على التكيف وسط هذا العالم الغريب بعدما عجز عن التكيف مع المجتمع الذي ترعرع فيه، يستخدم تلك الشخصية مؤقتا كطريقة للعيش فيكتسب سلوكيات تتناسب مع حاجاته ومتطلباته داخل السجن. وتستمر حياته على نمط معين وبإيقاع تتحكم فيه الغرائز والحاجات اليومية ويبقى بين مد وجزر، يستقبل الأيام وينتظر المواسم ويكبر في السن ومع تراكم الأيام يتأقلم مع مجتمعه الجديد، ومعنى ذلك أنه يتخلى عن الكثير من الصفات الشخصية والطبائع الذاتية ويذوب في الشخصية الجماعية الجديدة وذلك بتقليد من سبقوه إلى السجن، ويخضع تلقائيا لتوجيهاتهم، وبذلك تنتقل عقلية المساجين بين بعضهم البعض ويكونون مجتمعا متشابها. لكن رغم ذلك فإن النفساني وخلافا لباقي موظفي السجون عندما يلقي نظرة على المساجين سواء داخل القاعات أو في أي مكان يتواجدون به يلمس تضارب سلوكهم وتناقض تصرفاتهم واختلاف استجاباتهم للمؤثرات التي يتعرضون لها واختلاف نظرتهم لوضعيتهم العقابية أو حالاتهم النفسية أو ظروفهم الاجتماعية وحتى مكاسبهم الثقافية والمعرفية، وفعلا مثلما تختلف النظرة إلى السجين من لدن أفراد المجتمع، فالسجناء أيضا تختلف نظرة

كل واحد منهم إلى نفسه وتقييمه لذاته، إذ نفرق بين من يحكم على نفسه بأنه بطل بحكم تواجده في السجن وعلى من يحكم على نفسه بالنذالة لأنه ينتمي إلى عالم المساجين، وهذا دليل على رفض الانتماء والتواجد بالسجن .... إذن رغم تعايش المساجين بعضهم مع بعض في نفس الظروف الحياتية إلا أنه توجد بينهم فروقات عميقة نستخلصها من تصرفاتهم.

إذن سيكولوجية المساجين موضوع مثير للاهتمام والتحدي نظرا لكونه غامض ومعقد ومتناقض، وذلك لكون الحياة في السجن مشحونة بالقلق الذي يعتبر أساسا لمختلف الأمراض النفسية الأخرى التي تنتقل بين المساجين في غالب الأحيان بالإيحاء، فبمجرد سماع مسجون لزميله الذي يتحدث عن القلق أو الأرق أو الاكتئاب مثلا يتأثر بهذا الكلام ويصاب بأحد تلك الأمراض. فالأمراض التي تصيب المساجين جلها أمراض نفسية أو نفسجسدية. علما بأن بعض نزلاء السجن يدخلون إليه وهم مصابون مسبقا بأمراض نفسية متعددة قد تتطور خلال تواجدهم بالسجن، إذن ليس كل الأمراض من عمل الحياة العقابية، بل هذه الحياة نفسها تساعد البعض على إيجاد ذواتهم و تشفي البعض الآخر من عدة أمراض نفسية .

والهدف الأسمى الذي يسعى إليه النفساني بمختلف طرق العلاج التي يطبقها هو الوصول إلى التوافق الذاتي والاجتماعي للمساجين ومساعدتهم على العيش بأمن وسلام من فتك القلق والحصر والأرق ومختلف الأمراض الأخرى. ولأجل تحقيق الهدف نفسه تغيرت فلسفة الدولة نهائيا في منطق المعاملة العقابية فمثلا اختيار الحراس لم يعد يقتصر فقط على طول القامة و قوة البدن بل أصبح يتطلب الجانب الثقافي والمستوى الدراسي والتكويني لدى الحارس في محاولة تحويل السجن إلى مؤسسة مخصصة فعلا لإعادة التربية، لأن السجن لا يعني أبدا جعل السجين غريبا في موطنه وعن جنسه وآدميته .

الخاتمة

نقلت إليكم تجربتي الشخصية للعلاج النفسي داخل السجون بكل أمانة وموضوعية والمجال لا يسع لذكر الكثير من المعلومات المهمة التي تناسب البحث العلمي وتطوير المؤسسات العقابية.

المراجع

- قانون تنظيم السجون وإعادة التربية 1991 الديوان الوطني للأشغال التربوية، الحراش – الجزائر .
- الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية – رقم 22 – 15 ماي 1990 .
- مصطفى العوجي 1987 - دروس في العلم الجنائي – الجزء الثاني – السياسة الجنائية والتصدي للجريمة – مؤسسة نوفل بيروت لبنان.
- عبد الفتاح الصيفي، محمد زكي أبو عامر – علم الإجرام والعقاب – دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية مصر.